

عبد الملك بن مروان والشعر

- ٣ -

حسن تمثله به

لئن صح لنا أن نتخذ ما تقدم لعبد الملك من جودة نقده للشعر
دليلاً واضحاً على صائب نظره ونابى ذوقه انه لأصح عندنا أن نتخذ
ما سيأتى من حسن تمثله به وجميل استخدامه آياه دليلاً أوضح على أنه
قد درس الشعر دراسة خالطت منه لجمه ودمه وامتزجت عنده بالنفس
والروح فلفقد كان يتمثل في الحادثة إثر الحادثة بالبيت أو البيتين أو الأبيات
فكان ذلك من صنع شاعر مجيد قد راقب الحادثة حتى أحاط بها خبراً
ثم عمد الى القول فيها وأجاد . وانه لمسير على من عرف مقدرته في
هذا التمثل أن يجحد تعبيراً موجزاً ملماً يفهم القارىء مبلغ ما وصل اليه
عبد الملك في هذا ويكشف له القناع عما عسى أن يستتبط من تمثله
كميزة له في هذا الباب لهذا لم نر أمامنا من طريق للتعبير سوى أن
نجزئ القول تجزئة ونسوق الحديث شيئاً فشيئاً .

أولاً - عهدنا بالخطب والكتب أن تكون ثراً لا شعراً وأن
تأديتها بعيدة عن استخدام الشعر فيها أفسح للخطيب والكتاب وأعون
لها على حسن الأجادة وبالغ التأثير ولكن ذلك العهد حال مع عبد الملك
في خطبه وكتبه فقد كان لا يخلجهما غالباً من أبيات يتمثل بها فتكون
أكشف لمراوده وأغنى له عن أن يطيل في الحديث شأن المثل السائر

إذا استخدمه الانسان في الكلام والى القارى في كل نوع مثاين :

١ - لما تم له النصر على مصعب بن الزبير خطب الناس بالنخيلة
وهي موضع بالبادية على مقربة من الكوفة فقال : أيها الناس دعوا
الأهواء المضللة والآراء المشتتة ولا تكلفونا أعمال المهاجرين وأنتم
لا تعلمون بها فلقد جاريتمونا الى السيف فرأيتم كيف صنع الله بكم ولا
أعرفنكم بعد الموعظة تزدادون جرأة فأنى لا أزداد بعدها إلا عقوبة
وما مثلى ومثلكم الا كما قال أبو قيس بن الاسلمت

من يصل نارى بلا ذنب ولا آرة	يصل بناز ككرم غير غدار
أنا النذير لكم منى مجاهرة	كيلا ألام على نهى واعذار
فأن عصيتم مقالى اليوم فاعترفوا	أن سوف تلقون خزيا ظاهرا عارا
لتركف أحاديثا وملعبة	عند المقيم وعند المدلج السارى
وصاحب الوتر ليس الدهر مدركه	عندي وانى لطلاب لأوتار
أقيم عوجته ان كان ذا عوج	كما يقوم قدح النبعة البسارى

٢ - ولما قدم حاجا سنة خمس وسبعين بعد أن قتل عبد الله بن
الزبير واجتمع الناس عليه بما بين جلس على المنبر بالمدينة فشم أهلها
ووبخهم ثم قال : انى والله يا أهل المدينة قد بلوتكم فوجدتكم تنفسون
في القليل وتحسدون على الكثير وما جدت لكم مثلا الا ما قال منكم
وأخوكم الاحوص

وكم نرات بي من خطوب مهمة	خلفتكم عليها ثم لم أتخسع
فأدبر عن شرها لم أبل بها	ولم أدمعكم فى كربها المتطلع

فقام اليه نوفل بن مساحق وهو ما ذكره بعد التمثيل لحسنه في
باب المحاورة والاقناع قام فقال يا أمير المؤمنين أقررنا بالذنب وطلبنا
المعذرة فعد بحلمك فذلك ما يشبهنا منك ويشبهك منا فقد قال من
ذكرت من بعد بيتيه الأولين :

واني لمستأن ومتنظر بكم وان لم تقولوا في الملمات دع دع
أؤمل منكم أن تروا غير رأيكم وشيكا وكبما تنزعوا خير منزع
٣ — أناه من عبد الرحمن بن الأشعث أول خروجه عليه كتاب
فيه سطور أربعة يقول في ثلاثة منها :

سائل مجاور جرم هل جنيت لها ضربا يزيد بين الجيرة الخلط
وهل سموت بجرار له لجب جم الصواهل بين الجم والفرط
وهل ركت نساء الحى ضاحية في ساحة الدار يستوفدن بالغبط
ويقول في الرابع :

قتل الملوك وصادر تحت لوائه شجر العرا وعراعر الأقوام
فكتب اليه عبد الملك يقول :

ما بال من أسمى لأجير عظمه حفاظا وبنوى من سفاهته كسرى
أظن خطوط الدهر بيني وبينهم ستحماهم منى على مركب وعر
واني وإياهم كمن نبه القطا ولو لم تنبه باتت الطير لا تسرى
أناة وحلماً وانتظاراً بهم غدا فما أنا بالوانى ولا الضرع الغمر

٤ — وكان مما كتب به الى عبد الله بن الزبير قبيل قتله إياه بتوعده

ويتهدده قول العباس بن مرداس

أنى لعند الحرب تحمل شكى الى الروح جرداء السبالة ضامر
ثانياً - لا يعدم القارىء أن يجد شجاعة عبد الملك وهمته تبدو
واضحة ظاهرة فى ثنايا ما تقدم له من خطب وكتب غير أن ذلك
لا يصل الى ما كان عنده من شجاعة وبطولة وشهامة وعزيمة مكنته
مع بعد نظره وواسع حيلته من التغلب على مناوئيه واخارجين عليه وان
شئت فقل على الدولة جمعاء فقد كانت كلها عليه لا له حتى ذوى العصبية
من رهطه وعشيرته لأن الملك كان فى آل أبى سفيان ولشد ما عز عليهم
أن يأخذهم مروان وبنوه وإن فى المثلىن الآتئين لغناه وكفاية فى التديل
على تلك الشجاعة

١ - كان عبد الملك مقداماً فى الحرب يسترخص النفس عند
الروح وكان عند كل لقاء يتمثل قول شبيب بن البرصاء فى هذا ويعجب به
دعاني حصن للفرار فسأنى مواطن ابن تثنى على فاشتما
فقلت لحصن نوح نفسك انما يذود الفتى عن حوضه أن يهدما
تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما
سيكفيك أطراف الأسنه فارس اذا ريع نادى بالجوار وبالحمى
اذا المرء لم يفسح المكاره او شككت حبال الهوينى بالفتى أن تجذما

٢ - لما استفحل أمر مصعب بن الزبير بالعراق وعز على جنده
عبد الملك التغلب عليه أراد الخروج اليه بنفسه فلاذت به عاتكه بنت
يزيد بن معاوية وهى احبى نسائه وأم ابنه يزيد وقالت يا أمير المؤمنين

لا تخرج السنة لحرب مصعب فان آل الزبير ذكروا خروجك وابعث
اليه الجيوش وبكت وبكى جواربها معها فجلس وقال قاتل الله ابن ابي
جمعة يعني كثير عزة فابن قوله

اذا ما أراد الغزو لم تنهمه حصان عليها عقد دريزنها
نهته فلما لم تر النهى عاقه بكت فبكى مما شجاها فطينها
والله لكانه يراني ويراك يا عاتك ثم نهض فخرج فكان في خرجته
قتل مصعب .

ومما يذكر هنا عن صدق فراسته وحده أنه لما قام فخرج نظر
الى كثير في ناحية عسكره يسير مطرقا فدعا به وقال لا أعلم ما أسكتك
والتي عليك بشك فان أخبرتك عنه أتصدقني قال نعم قال قل وحق ابي
تراب لتصدقني وكان كثير علويا مغاليا وأبو تراب احدى كنى على رحمه
الله فقال والله لأصدقنك قال لا أو تخلف به فخاف به فقال عبد الملك
تقول رجلان من قريش يلقي أحدهما ضاحبه فيحاربه القاتل والمقتول
في النار فما معنى سيرى مع أحدهما الى الآخر ولا آمن منهما عاترا لعله أن
يصيبني فيقتلني فأكون معهما قال والله يا أمير المؤمنين ما أخطأت قال
فارجع من قريب وأمر له بجائزة .

ثالثا — قد كان لعبد الملك فراسة صادقة تتبعها سياسة حسنة منها
ما ذيلنا به الحكاية السابقة وقد كان في تمثله بالشعر ما هو أدل على تلك
الفراصة وأجلى لها وإلى القارىء من هذا طرفا .

١ — قال أبو الحسن المدائني أصبح عبد الملك يوما في غداة باردة

فتمثل قول الأخطل

إذا اصطبح الفتي منها ثلاثاً بنير الماء حاول أن يطولا

مشى قرشية لا شك فيها وأرختي من ما آزره الفضولا

ثم قال كأنى أنظر إليه الساعة محلل الأزرار مستقبل الشمس في
حانوت من حوانيت دمشق ثم بعث رجلاً يطلبه فوجده كما ذكره
وكان الأخطل مغرماً بالشراب ولا سبيل لعبد الملك إلى نهيه لأنه كان
نصرانياً ولدين الإسلام مع أهل الذمة من حسن المعاملة ما هو
معروف مشهور .

٢ - لما بعث إليه الحجاج برأس عبد الرحمن بن الأشعث كان
الرسول عرار بن عمرو بن شاس فلما أدخل إليه بالرأس وبكتاب الحجاج
جعل يقرأ الكتاب وكما شك في شيء سأل عرارا ، عنه فأخبره شافياً
فمجب عبد الملك من بيانه وقصاحته مع سواده فقال متمثلاً :

وان عرارا ان يكن غير واضح فاني أحب الجون ذا المنكب العم

فضحك عرار فقال له عبد الملك مم ضحكك وملك قال أتعرف

يا أمير المؤمنين عرارا الذي قيل فيه هذا الشعر قال لا قال فأنا والله هو

فضحك عبد الملك وقال حظ وافق كلمة ثم أحسن جائزته وسرحه . هذا

وكان لعرار في صغره زوج أب تنهره وتؤالمة فنهاها أبوه عنه وقال :

أرادت عراراً بالهوان ومن يرد عراراً لعمرى بالهوان فقد ظلم

وان عراراً ان يكن غير واضح فاني أحب الجون ذا المنكب العم

رابعاً - وقد يحوم حول الأذهان من بعيد أن إعراض عبد الملك

عن عائكة فيما تقدم اذا دل من جهة على شجاعة وشهامة فقد يدل من
أخرى على جفاء وقسوة فدفماً لذلك رأيت أن آتى بتمثل له يرى ما كان
عنده من رقة شعور ولطف معاملة وينعكس من ناحية أخرى فيزيد
تلك الشجاعة ويرفع منها

١ — حدث بينه وبين عائكة نبوة جفته من أجلها فشق ذلك
عليه ووسط من خاصته من يريل هذا منها فلما طلع عليه الرسول برضاها
وكان قد أعياه ذلك اندفع متمثلاً بقول كثير
واني لأرعى قومها من جلالها وان أظهر واغشا نصحت لهم جهدى
ولو حاربوا قوى لكنت لقومها صديقاً ولم أحمل على قومها حقدي
ولما تقدم من تمثله في عائكة وعرار فأكمة نسوقها للفريض مع
يزيد بن عبد الملك ذلك أنه قدم مكة قبل أن يستخلف وبعث الى
الفريض سرّاً ليغنيه فغناه بييتى كثير فأشار اليه مواليه أن اسكت لما
كان من تمثله عبد الملك بهما في عائكة أم يزيد ففطن يزيد وقال دعوه
يعننى بما يريد وكان الفريض قد فطن أيضاً فغناه بييتى عمرو بن عرار
ليعقب ما أخذ عليه بما كان من متمثلات عبد الملك في الأمور العظام
كعذرة واسترضاء

خامساً — في تمثله عبد الملك بالشعر ما يدل فوق ما تقدم على
ما كان عنده من صراحة في القول

١ — لحق به عروة بن الزبير بعد قتله لأخويه عبد الله ومصعب فأقام
عنده فكان اذا دخل عليه منفرداً أكرمه واذا دخل عليه وعنده أهل الشام

استخف به فقال له عروة يوماً يا أمير المؤمنين بئس المزور أنت تكرم
ضعيفك في الخلا وتهينه في الملا فقال لله در زهير حيث يقول :

فقرى في بلادك ان قوما متى يدعوا بلادهم يهونوا
فاستأذن في الرجوع الى المدينة ففضى حوائجه وأذن له وحسناً
فعل مع عروة فما كان لموتور في أخوين كعبد الله ومصعب أن يقف
دون الثأر بله الإقامة عند الوار

٢ — وكان عبد الملك كلما نظر الى أخيه معاوية وكان ضعيفاً يتمثل

بهذين البيتين

أبوك أبي وأنت أخي ولكن تفاضلت الطبائع والظروف
وأملك حين تنسب أم صدق ولكن ابنها طبع سخي
والبيتان للمغيرة بن حبناء في أخيه صخر قال الأصمعي لم يقل أحد
في تفضيل أخ على أخ وهما الأب وأم مثل قول المغيرة بن حبناء لأخيه
صخر وذكر البيتين .

سادساً — كان عبد الملك يقدس الشعر ويعمل به فيأبى أن
يخالف مدحا قيل فيه أو أن يرضى لغيره ما ليس له بأهل فما يروى
من النوع الأول وهو ينبيء عن مبلغ المروعة من نفسه وتأصل العفة
فيه الحكاية .

١ — لما وصل اليه الرسول بكتاب ابن الأشعث استأذن في
وقت كان يستعرض فيه جارية بعث بها اليه والى اليمن لم يرقط مثلها فلما
قرأ الكتاب نحاهما وأعرض عنها مع كثير بشغفه بها فكلمته في ذلك

وقالت ما يمنعك يا أمير المؤمنين فقال يمنعني ما قاله فينا الأخطل لأنني
ان خرجت منه كنت أأم العرب وأنشد
قوم اذا حاربوا شدوا ما أزرهم دون النساء ولو بانت بأطهار
فإليك سبيل أو يحكم الله بيني وبين عدو الرحمن بن الأشعث ثم
لم يقربها حتى قتل عبد الرحمن .

ومن النوع الثاني وقد تقدم منه في المقال الماضي شيء ولكن
بغير التمثل ما يأتي :

١ - قال مرة لأبي العباس الأحمي انشدني مديحك مصعبا
فاستغفاه فقال يا أمير المؤمنين انما رثيته بذلك لأنه كان صديقي وقد
علمت أن هواي أموي قال صدقت ولكن انشدني ما قلته فأنشده
برحم الله مصعبا فلقد مات كريما ورام أمرا جسيما

فقال عبد الملك أجل انه مات كريما ثم تمثل
ولكنه رام التي لا يرومها من الناس الا كل حر معمم
٢ - ودخل عليه نصيب بعد وفاة أخيه عبد العزيز وكان من

خواصه ومادحيه فقال له أنشدني ما رثيت به أخي فأنشده
عرفت وجربت الأمور فما أرى كإض تلاه الغابر المتأخر
ولكن أهل الفضل من أهل نعمتي يمرون أسلافا أمامي وأغبر
فإن أبكوا أعذروا وإن أغلب الأسي بصبر فثلي عند ما اشتد بصبر
فلما سمع بيته الأخير أعاده وقال له ويحك أنا أحق بهذه الصفة في

أخي منك فهلا وصفتنى بها وجعل بيكي

٣ - ورب من يقول إنه استعان بنصيب في هذا ولم يجد له

كفيثا فنقول قد تمثل فيه بالأبيات وجعل يرددها ويبيكي أيضا

يا أيها المتنى أن يكون فتي مثل ابن ليلي لقد خلى لك السبلا

ان ترحل العيس كي تسعى مساعيه يشفق عليك وتعمل دون ما عملا

لو سرت في الناس أقصام وأقربهم في شقة الأرض حتى تحسر الإبلا

تبني فتي فوق ظهر الأرض ما وجدوا مثل الذي غيبوا في بطنها رجلا

اعدد ثلاث خصال قد عرفن له هل سب من أحد أو سب أو بخلا

سابعاً - ولقد كان اذا لم يجد من الشعر ما يغني الغناء الكافي

عند التمثل قرض شعراً وتمثل به .

١ - لما ظفر ابن الزبير بالعراق وأخرج عنها عمال بني أمية خرج

ابن عبدل معهم الى الشام وكان ممن يدخل على عبد الملك ويسمر

عنده فقال لعبد الملك ليلة .

يا ليت شعري وليت ربما نفعت هل أبصرن بني العوام قد شملوا

بالذل والأسر والتشريد انهم على البرية حشف حينما نزلوا

أم هل أدراك بأكناف العراق وقد ذلت لعزك أقوام وقد نكلوا

فقال عبد الملك الشعر الآتي وقيل إنه لغيره وتمثل به وعلى كليهما

فلم يخرج به عن الموضوع قال :

ان يمكن الله من قيس ومن جدس ومن جذام ويقتل صاحب الحرم

نضرب جهاجم أقوام على حنق ضربا ينكل عنا غابر الأمم

وقد أمكنه الله من ذلك وشد أواصر ملكه بتلك الشدة التي

تذرها وأعاد لبني أمية ملكا في بني مروان بعد أن ذعذعت به صروف
الليالي من آل أبي سفيان

ثامنا - لم تعد تلك الشدة معه شد الملك وتأيبده ولم تخرج به
بعد تلك الدائرة التي كان ير الشدة فيها عدلا الى شيء يعد عليه ظلما
وعدوانا وهذا أيضا نستدل عليه من مثله

١ - فكان اذا جلس للقضاء بين الناس أقام وصيفا على رأسه ينشده

انا اذا مالت دواعي الهوى وأنصت السامع للقائل
واصطرع القوم بالبابهم تقضى بحكم عادل فاصل
لا نجعل الباطل حقا ولا نلظ دون الحق بالباطل
نخاف أن نسفه أحلامنا فنخمل الدهر مع الخامل

ثم يجتهد في الحق بين الخصمين .

نلسعا - وان آخر ما تمثل به من الشعر في علته التي مات فيها
ما يأتي برواية الشعبي قال :

١ - دخلت على عبد الملك بن مروان في علته التي مات فيها فقلت

كيف تجددك يا أمير المؤمنين فقال أصبحت كما قال عمر بن قننه .

كأني وقد جاوزت تسعين حجة خلعت بها عنى عنان الجاهي
رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى فكيف بمن يرمى وليس برام
فلو أنها نبيل اذا لا تقيتها ولكنما أرى بغير سهام
وأهلكني تأميل يوم وليلة وتأميل عام بعد ذلك وعام

فقلت لست كذلك يا أمير المؤمنين وهذا كما قال لبيد
قامت نسكى الى الموت مجهشة وقد حملتك سبعاً بعد سبعينا
فان نزادى ثلاثاً تبغى أملاً وفي الثالث وفاء للثمانينا
فعاش حتى بلغ التسمين فقال :

كأنى وقد جاوزت تسمين حجة خلعت بها عن منكبي ردائنا
فعاش والله حتى بلغ مائة وعشرين فقال :

وغنيت سبتاً قبل مجرى داحس لو كان للنفس اللجوج خلود
ويروى دهر اقبل مجرى داحس فعاش حتى بلغ مائة واربعين سنة فقال
ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذى الناس كيف لبيد
فتبسم عبد الملك وقال لقد قويت من نفسى بقولك يا عامر وانى
لاجد خفا وما بى من بأس وأمر لى بصلة وقال لى اجلس يا شعبي فحدثنى
ما بينك وبين الليل فجلست فحدثته حتى أمسيت وخرجت من عنده
فاصبحت حتى سمعت الواغية فى داره .

عاشراً - تلك جملة من تمثلات عبد الملك بالشعر الذى لم يكن
يقف استخدامه له عند حد وإنه مهما شعر القارىء فيما تقدم بالمزيد فانا
نعترف بالعجز عن إتمام تصوير مقدرته فى هذا الموضوع فاذا وقفنا عند
هذا الحد فى ذاكم المبحث فليس وقوفنا الا تجنباً للأطالة فيه ومحبة
لسرعة الانتقال الى معرض آخر من علاقته بالشعر يكون موعداً به
العدد الآتى ان شاء الله

السباعى بيوى

بالمدرسة الثانوية الملكية بمصر